الأدب - مراميه وآفاقه

جدير بنا ونحن نشاء أن نتناول الحديث عن تاريخ الأدب العربي ونحلل مميزاته في كل عصر ونتبين عوامل ازدهاره أو انحطاطه، أن نقف هنيهة نتساءل عن الأدب وعن إيجاد تعريف نتفق عليه ونتخذ منه أساسا لبحثنا في هذا التاريخ الطويل للانتاج الفكري لدى مختلف الأمم التي نطقت بالضاد، وجدير بنا أن تكون هذه الهنيهة درسا يطول أو يقصر، ولكنه درس نهتدي به إلى تفهم ما سندرس ونتذوق ما نشاء أن نستعرض من صور وألوان لهذا الأدب العربي الذي تطاولت عصوره، وتقادم عهد ولادته، فإذا بعصوره تزيد عن خمسة عشر قرنا مضت، والظاهر أن قرونا وقرونا ستتوالى عل هذا الأدب وصوره البارزة حين لا تزداد إلا قوة وإلا تعبيرا عن الحياة. أما عهد ولادته فليس من اليسير أن نهتدى إليه، ونستريح إلى رأي جازم عنه، بأننا لم نهتد لهذا الأدب من عهد تكوين نسميه عهد ولادة، وإنما نجد مهما تعمقنا في تاريخ الأمة العربية أن هناك أدبا قبل الهجرة النبوية بنحو قرن ونصف أو أزيد، لا تظهر عليه أثر الطفولة بمقدار ما تتجسم فيه آثار النضوج. إذن فنحن نشاء أن ندرس آثار نظر من أنظار الحياة الإنسانية الحافلة، ونرغب أن نتعرف إلى هذا المجهود الذي تعاونت على إبرازه عقول ناضجة وعواطف حية، ومن هنا لم تكن هذه الدراسة بالشيء الهين، فهى لا تشاء أن تقتصر على ناحية تتخيل لنا إذا ما تصورنا لفظة الأدب، ولكن تشاء أن تضم المجهود الفكري إلى أحضانها وتكون منه ومنها وحدة؛ فنحن إذا ما تصورنا لفظة الأدب تخيلنا الكتابة الفنية وشعر الشعور والأمثال وما يشابه ذلك من ألوان هى من الأدب وللأدب تنتسب. ولكن ليس هذا بالشيء الذي نجده أمامنا إذا رمينا بأعيننا إلى دراسة لتاريخ الأدب العربي، بل نجد كل الآثار الفكرية تنطوي تحت كلمة « الأدب » ولكن ليس معنى ذلك أن عجز الدارسين

للأدب العربي والمصورين لتطوراته عن التفريق بين الأدب الخالص وبين التفكير الخالص هو الذي أمر بنا إلى أن يتسع ميدان الأدب ويتسع صور التفكير بجانب صور الشعور، ولكن معنى ذلك أنك لا تقوى أن تجد فرقا جوهريا بين الناحية الأدبية وبين الناحية الفكرية خصوصا في الماضي حيث لم تكن لتظهر الناحية الفكرية خالصة ولا الناحية الشعورية خالصة مثل ما يتراءى لنا اليوم فنستطيع أن نجد للأدب ميدانا وهو غير ميدان العلم. فمدلول تاريخ الأدب مدلول يتسع تارة حتى يشمل كل الآثار التي ورثناها عن الماضي، ولكن هذا الشعور لا يحول بيننا وبين أن نسعى لنجد تعريفا واضحا للأدب، تعريفا ينير لنا سبيل التميز بين الآثار الأدبية والآثار الفكرية فنعمل على تفهم وتذوق الآثار الأولى والاتصال بالآثار الثانية لنعرفها أولا ولنعرف تأثيرها في الأدب ثانيا.

تعريف الأدب

ولأجل أن نصل إلى تعريف للأدب من أقرب الطرق، ينبغي أن نهتدى إلى الميدان الذي لا يمكن للعلم أن يخوض فيه إلا باحثا ؛ أما الأدب فيعتمد عليه في كل شيء ليمده بحيوية وخصوبة هذا الميدان الذي تتجلى فيه العاطفة بكل ما تزخر به من انفعالات وإحساسات، بل يعمل على تلمس تلك الانفعالات والإحساسات والاندماج في تأثيرهما والغوص في أعماقهما. وهكذا نستطيع أن نجلى حقيقة الأدب بأن نصوره معبرا عن هذه الإحساسات الباطنة التي نتحسسها تارة في رفق وطورا في عنف دون أن نصل إلى مصدرها ولا ندرك أين حيزها من نفوسنا مهما تعمقنا في فلسفة الحياة ومهما حاولنا أن نتصل بالعلم ليدلنا على جرثومتها الأولى.

ولكن ليس هناك من ريب أن التفكير يمد تعبيرنا عن هذه الإحساسات بكثير من عناصره، وهناك تختلط الحياة العقلية بالحياة العاطفية، وهنا يصعب التمييز بين كثير من

الإنتاجات هل تعتبر من الأدب أو لونا من ألوان التفكير. على أنه يجب أن نلاحظ أننا لا نجد فرقا واضحا تمام الوضوح بين عقل الإنسان وعاطفته بالإنسان، إنما اصطلح أن يصور بعض أعماله التي مصدرها القوة المميزة التي تقارن، تنسج باعتبارها حاسة عقلية، ويصور بعض أعماله التي مصدرها الميل الغريزي التي ترمي إلى نوع خاص من الحياة بالحاسة العاطفية.

مرامي الأدب

فإذا تصورنا جيدا بين أن الأدب والبواعث الكامنة التي تدفعنا أن نكون أدباء في بعض الأحيان، فمن الضروري أن نسعى في تفهم المرامي البعيدة التي يصورها لنا هذا الشعور الأدبي الذي يخالجنا. هذه المرامي التي تنير لنا مهمة الأدب في الحياة ليست متفقا عليها لا يخشى اللبس أو الخباء وإنما هى مرامي عميقة في أغوار نفوسنا ندركها ونشعر أن الأدب قد أدى وظيفته متى عبرنا عن خلجات أرواحنا أو استمعنا إلى تعبير من خلجات الغير فتذوقناها وشعرنا بصداها يرن في إحساسنا.

وفي رأيي أن هذه المرامي تنحصر في ثلاثة نقط:

أولها أن الأدب يسعى في تصوير الحياة من طريق التعبير عن جزئياتها الخفية ووصف مظاهر الوسط وأحوال المجتمع وصفا صادقا، فإذا بالأدب مرآة ترى بواسطتها الأجيال القادمة حياة السلف فتتمثلها جيدا وتدرك المؤثرات عليها ومميزاتها.

وثانيها أن الأدب يحاول دائما أن يعبر عن كثير من الإحساسات التي تضطرم في أحشائنا وتختلج في نفوسنا وتثور بها عواطفنا، فليس من وظيفة الأدب أن يحلل لنا نزعات النفس أو تأثيرات العاطفة تحليلا علميا، بل وظيفته الرئيسية أن يبين عن تلك الإحساسات كما هى ويريها للملإ في صورة صحيحة، تلك الإحساسات التي ينبغي أن

نصرح أن العلم رغم تقدمه العجيب ورغم جولاته المدهشة لم يتصل بها ولم يحللها إلا من طريق احتمالات يعبث بها الظن وتتجه بها التجربة في كثير من جهات الخطإ.

وثالثها أن الأدب يكون منا أفرادا لتذوق الجمال بواسطة شعور سام نتلمسه في صميم أحشائنا ويخفف من غلواء العاطفة التي يبعثها فينا الجمال الإنساني ويصرف تلك القوة في طريق من الإحساس عميقة لا تنعدم متى انعدم ذلك الجمال في أعيننا، بل تتجدد على صفحة أرواحنا كل حين ويخلد آثارها على مر العصور.

فوظيفة الأدب أو مهمته تسعى أن تحيط بالجمال المطلق وتدمجه لا بأجسامنا ولكن بأرواحنا. بماذا يتأثر الأدب؟ وبماذ يؤثر؟ لست من الذين يتصورون أن السياسة هى وحدها التي تتجه دائما بالأدب وتجعل من عصورها عصورا متى ازدهرت ازدهر ومتى تراجعت إلى الوراء تراجع، لست من هؤلاء الأفراد ولست ممن ينكر تأثير السياسة على الأدب مثل ما يؤثر كل شيء في الأدب ومثل ما يؤثر الأدب في كل شيء. لا غرو أن تأثير الأدب بكل شيء وتأثيره في كل شيء فهو الآلة الحساسة التي تسجل لنا نبضات الأمة. فالسياسة تؤثر في الأدب كما يؤثر كل شيء في الأدب، فما هو الشيء الآخر أو بالأحرى ما هى العوامل التي تؤثر في الأدب غير عامل التطورات السياسية؟ وليس من الهين أن نحاول أن نعدد المؤثرات في الأدب فهى عديدة تنوعت واتصلت حينا بالفرد وحينا بالجماعة.

اتصلت بالفرد المبدع في الجو الأدبي، وبهذا الفرد الذي يوحي الإبداع للأدب وبهذا الفرد الذي يشمل هذا الإبداع بالعطف والتشجيع وأخيرا بالإعجاب وبهذا الفرد الذي يتولى ميزان النقد بفكر أو يصد به إلى هذا الإبداع ليزيف زائفه ويصحح صحيحه.

واتصلت بالجماعة في حركتها وجمودها في تفاؤلها وفي تشاؤمها اتصلت بالجماعة في اتجاهاتها وتقاليدها ومراميها.

اتصلت بالجماعة في هذه التيارات التي تأخذ الأمة في مجراها من أديان وعلوم ونظريات.
اتصلت بالجماعة في هذه المقاييس التي تحيى الأمة فيها وتحيى لها مقاييس في تقدير كل شيء وتقدير الجميل من الأشياء بوجه أصح.
اتصلت بالجماعة في هذا المحيط من الطبيعة التي تعيش فيه وفي هذا الجو الذي يشتد غيظه في الصيف وزمهريره في الشتاء أو يعتدل.
ولعلنا نطيل إذا شئنا أن نستعرض هذه المؤثرات، فالأجدر بنا لنختصر أن نعلن أن كل شيء يؤثر في الأدب، كل شيء يسود الأمة ويسيطر على الجماعة ويتجه بالفرد اتجاها ما في الحياة، بل نود أن نفهم أن كل شيء يضم تحت سمع الأدب أو بصره أو حسه إلا وله صدى في إنتاجه الأدبي، صدى قد يكون عميقا رنانا قويا بارزا، وقد يكون خافتا يتأثر بدورة من دورات الأرض، ولكن لا بد له أن يترك أثرا في العقل الباطن في النفسية الحساسة للأديب.
فإذا سعينا في تفهم شعور أديب أو النظر إلى إنتاج أدبي أو مدرسة أدبية من الضروري أن لا نقتصر على درس التقلبات السياسية التي سادت في العصر، بل يفرض علينا البحث الأدبي أن نهتم بكل شيء يتصل بالجماعة والفرد في ذلك العصر، فإن أعوزنا أخبار الماضي فلم تصلنا إلا بمعلومات سطحية عن الجو الذي عاش فيه الأدب أو المدرسة الأدبية؛ على الأدباء والعلماء أن يتخيلوا وأن تجول تصوراتهم في عالم الفرض والاحتمال ليدلونا على المؤثرات على ذلك الأدب أو تلك المدرسة إذ تتراءى لهم تلك المؤثرات من خلال فحص وتذوق الإنتاج الأدبي نفسه فلا ضير على الأديب إذا مد حياة الماضي التي انقطعت بيننا وبينها الأسباب بحياة من نفسه وعبقريته بالتصوير الصادق والخيال المنسجم.
وإذا كان الأدب يتأثر بكل شيء فإنه يؤثر أيضا في كل شيء، ومعنى ذلك أن للأدب مهمة في الحياة يسعى دائما في أن يؤديها ويبلغها، فنفس الأديب تضطرم بعدة خواطر وتموج بكثير من عناصر الخير المحمود والشر المحجوب، تضطرم لموج فيهتز ما في الوسط من

تيارات وتتأثر بالرنين الذي يبعثه الأدب من أغوار نفسه.

فإذا رأيتم انقلابا سياسيا خطيرا، فلا يبعد أن يكون الأدب لعب الدور الرئيسى على مسرحه، وإذا رأيتم نهضة فكرية تصوروا أن باعثها الأول أدب ينشد مثلا من المثل ويعمل لغاية من الغايات ، وإذا تحسستم دبيب الحياة يسري في وسط جامد فتيقنوا أن الأدب يعمل عمله في الأموات كما يعمل في الأحياء، فإذا هو يحيي الأرواح ويعيدها إلى الأشباح التي ابتعدت عن الحياة أمدا ما.

آفاق الأدب

أية ناحية يتناولها الأدب؟ وأية ناحية لا يتناولها؟ بجواب هذا السؤال نستطيع أن نتصور الآفاق التي يصير إليها إحساس الإنسان في الجو الأدبي؛ فالأدب يتناول كل ما تتناوله الحياة والناحية الشعورية منها بوجه خاص، ولكن بأية صورة يتناول الأدب ما تتناول الحياة؟ تلك الصورة هى الوصف للوصف والتعبير للتعبير، الوصف لما يشاهده الأدب من مظاهر الحياة فترتسم على صفحات قلبه، والتعبير عن هذه الإحساسات التي تطغى على نشاط الإنسان ذي الشعور الحى وتفيض عنه بقوة مجهولة المستقر في نفسه.

فالأديب لا يتناول ناحية واحدة من نواحي الحياة ولا يشتمل طبقة خاصة من طبقات البشر، فإنك إذا كنت ذا حظ من النفس الحساسة وذا شاعرية تتيح لك أن تعبر فتجيد التعبير وتصف فتبدع في الوصف وجدت أينما التفت صورة تبعث في نفسك تأملات وسبحات وزفرات هى الأدب الفطري بأجلى معانيه، فإذا صورت هذه التأملات وهذه السبحات وهذه الزفرات تصويرا يخلد للأجيال كنت أديبا خالدا دون أى اعتبار للناحية التي أثارت في نفسك هذه الموجات من الشعور الفياض.